و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

تطهير القلوب

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

٢٨ / ٦ / ١٤٤٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تطهير القلوب

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله.

أمَّا بعد...فنحنُ في يوم الاثنين، في الليلة التاسعة والعشرين، من شهر جمادى الآخرة، وغدًا أول ليلة من ليالي رجب، وحينما نتحدث عن أنَّها ستكون أول ليلة من ليالي رجب، فإنَّ ذلك يعني أنَّنا دخلنا في أحد الأشهر الحرم، فرجب شهر الله الحرام، وشهره المعظم، وهذا الشهر بالذات -شهر رجب- لا يثبت فيه فضيلة في حديثٍ صحيح سوى أنَّه من الأشهر الحرم التي تعظّم فيها السيئات، أي: تثقل، وتضاعف فيها الحسنات.

لكنَّ الميزة الأهم إضافة إلى أنَّه شهر الله الحرام، **أنَّه هو الشهر المهيئ لرمضان**، فهو شهر الاستعداد لرمضان، وذلك كما قلنا أنَّ السلف -رضوان الله عليهم- كانوا يستعدون لرمضان قبل ستة أشهر، وليس كحالنا نستعد له قبل شهرين فقط أو أقل من ذلك، ثم إذا جاء رمضان اجتهدوا فيه ما يجتهدون، ثم إذا انتهى رمضان سألوا الله -عزَّ وجلَّ- ستة أشهر أن يتقبَّل منهم، فكان رمضان في حياتهم شهرًا فاصلًا يحتاج منهم هذا الاستعداد.

ونحن نحاول أن نغير في الدُّروس الَّتي نستقبلها في هذين الشَّهرين، حتى يكون لدينا في شهري رجب وشعبان ثمانية لقاءات بإذن الله.

وفي هذه اللقاءات التي ستكون في شهر رجب سنحاول التركيز على الخلوة بذواتنا، وتطهيرها، وتزكيتها، فنقوم بعملية تنقية وتصفية، لتطهير قلوبنا، نجرد فيها أنفسنا، أعمالنا، لنتأكد ما هي المناطق السليمة التي تحتاج إلى تعزيز؟ وما هي المناطق التي فيها شيء من السَّواد، وفيها شيء من الدُّخان، وتحتاج إلى تطهير؟

إذن سنحاول في دروسنا خلال شهر رجب في اللقاءات الأربعة أن نبدأ في عمليات تطهير وتنظيف وتزكية تمهيدًا لما نريد أن نتواصى به في شهر شعبان بإذن الله، وشهر شعبان سيكون هو شهر الزَّرع الذي نحاول فيه أن نتواصى على عددٍ من الأعمال الصالحات التي نريد أن ندخلها إليه.

ولذلك غالبًا سيكون لنا مثل الواجب اليومي في نهاية كل لقاء من هذه اللقاءات، وهذا الواجب نريد أن نتواصى عليه نحن وأحبتنا وأسرنا وأبناؤنا وبناتنا، نريد أن نتواصى معهم في فعل هذا الواجب علّ نفوسنا أن تهتدي فتهدأ، وقلوبنا أن تتطهر فتسكن.

نبدأ لقاءنا لهذا اليوم بقول الله تعالى في سورة الشُّعراء حينما انتهى من قصص الأنبياء، وما حصل لهم من أقوامهم، ثم ختم الله - عزَّ وجلَّ - هذه الآيات بأن هذا القرآن الكريم قد:[نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)](الشعراء:١٩٣-١٩٤).

نزل به الروح الأمين على قلبك، **إذن لم ينزل القرآن الكريم على الأجساد فقط، لم ينزل على الدنيا ليصلحها فقط، نزل القرآن في المقام الأول على القلوب ليصلحها، ولذلك نحن ندور ثم نرجع إلى القلب،**

عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " ... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ". [أخرجه البخاري، صحيح].

فلا قيمة لأي عمل صالح نعمله، كالصدقات وغيرها من الأشياء الكثيرة التي نعملها إذا لم يصلح القلب أساسًا، فلا عمل صالح مع الرياء، ولا عمل صالح يشوبه العجب، ولا عمل صالح وأنت تشرك به النية، كل هذا العمل غير مقبول إذا لم يصلح القلب، فكل عملية من العمليات التي نرغب في القيام بها من أجل تطهير القلب تجعلنا نحتاج أولًا إلى أن نتداوى بالدواء الذي أنزله لنا الله - عزَّ وجلَّ - في القرآن الكريم، فقد نزل هذا القرآن؛ ليصلح قلوبنا.

ولو سألتك الآن، **ما هي الآية التي نزلت على قلبك مثل البلسم؟ وما هي الآية التي كلما ذكرتها أو سمعتها رجف لها قلبك؟ سواء حبًا أو شوقًا أو خوفًا؟!**

اسمعوا معي لمالك بن دينار حينما قال كلمة جميلة رائعة تكتب وتبروز وتوضع في صدر المجالس ويتناقش فيها، هذه الكلمة الرائعة هي قوله: [**يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ إنَّ القرآن ربيع المؤمن كما أنَّ الغيث ربيع الأرض، فإنَّ الله ينزل الغيث من السّماء إلى الأرض فيصيب الحَشّ، فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضرّ، فإذا كانت الحبة تخضرّ فكيف لا يخرج القرآن معاني الإيمان من قلبك**]. والحش: هو المكان الذي تتجمع فيه القاذورات، فالحش مكان قذر تتجمع فيه مجموعة من القاذورات، وبين كل هذه الأوساخ والتلطخ توجد حبة صالحة نقية مغموسة في وسط القاذورات، فعندما نزل الغيث على هذه الأرض فلامس تلك الحبة،، ولأنَّ في هذه الحبة الخير والحياة فما منعها نتن الموضع التي هي فيه أن تهتز وتخضر .

وفي خاتمة قوله سؤال مهم ؟ وفيه نوعٌ من البشارة لنا ولقلوبنا، لأننا أحيانًا ننظر إلى قلوبنا فلا نرى فيها إلا السواد، نشعر أنَّ هذه القلوب ملأى، فعن أي نوع من التطهير تتحدثين؟ وأي نوع من الإيمان والتحليق الإيماني! ونحن نشعر أن قلوبنا معلقة بالدنيا؟ فنحن نشعر أننا ملطخون بكم هائل من الصور والعورات والذنوب والخطايا من السناب، أو غيرها من مواقع التواصل، وإلى الآن لم تنصلح قلوبنا ولا ديننا ولا إيماننا.

لاحظوا قول مالك بن دينار إذ يقول: في وسط هذه القاذورات قد تكون هناك حبة صغيرة فلا يمنعها نتن الموضع

التي هي فيه لمَّا نزل عليها الغيث أن تهتز وتخضرّ، كذلك هو فعل القرآن في القلوب؛ لأنَّ الذي خلق هذه القلوب هو الله -عزَّ وجل- فإذا خلق الله تلك القلوب فقد أنزل معها الدواء أيضًا، إذن نحن بحاجةٍ لدواء وهو القرآن الكريم، نتشافى به ليكون هو الدواء لقلوبنا.

فإلى كل من استعرت عليه الشهوة فلم يستطع أن يقاومها ويجاهدها - واستخدمتُ لفظ الاستعار الخاص بالنَّار؛ لأنَّ الشهوات تستعر مثل النار في دواخلنا فنشعر أمامها بالضعف الشديد، كحال من يشتكي من الذَّنب حينما يعتاده بين الفينة والفينة، ففي كل مرة يترك الذنب يجد نفسه رجعت له بعد ساعة، ثم يترك الذنب شهر ويجد نفسه رجعت له بعد شهر آخر، ثم يتركه سنة فيجد الذنب رجع له بعد سنة أخرى وهكذا، وكحال من يشتكي تعسير الحال ونكادة الدنيا وكدرها، وأنه كلما حاول أن يفتح باب أغلق أمامه، وكلما حاول أن يعيش حياته بنوع من السلام وجد الدنيا تتنكد أمامه أيضًا، وإلى كل من يشتكي ضعف الإيمان ويشتكي من فتوره ومن برودة، فيحضر الكثير من المحاضرات ولا شيء ينفع، ويسمع ولكنه لا يطبق، ولا يشعر بتأثير من الكلام يهتز له قلبه، كلنا نشعر بذلك، نشعر بالبرود والفتور وتعسر الحال وتنكيله، نشعر أيضًا بالشهوات حين تستعر في قلوبنا، والذنب حينما نفشل في تركه ونعتاده بين الفينة والأخرى.

إلى كل هؤلاء نقول: لا علاج لنا إلا بالقرآن، تعالوا نسمع ونرخي آذاننا لهذا القرآن كيف يعالج هذه القلوب؟

سأبدأ معكم في آية نرددها ونقرأها دائمًا في سورة الملك في كل ليلة، نأتي للآية التي تبين لحظة التحسر والندم للذين كفروا ودخلوا النار: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)(الملك:١٠).

لاحظوا لحظة التندّم والكلمة التي قالوها عندما دخلوا النار، لم يقولوا لم نكن نعلم يا رب، يا رب هل صحيح يوم القيامة؟ لم نكن نعلم، يا رب لم يخبرنا أحد، لم يقولوا هذا الكلام، وهم في هذه اللحظة التي ينشوون ويحترقون فيها لن يخرج من الإنسان إلا التعبير الصادق الذي يشعر به بالفعل، فقالوا وهم متحسرون ونادمون: (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)(الملك:١٠).أي: لو كنا نسمع ذلك الكلام، ولو كنا نعقل ما سمعناه، ما كنا في هذا الموضع الآن.

إذن قضيتنا هي أن نتسمع ولا نستمع أي استماع، يقول الله -عز وجل-: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسئُولًا)(الإسراء:٣٦).

لو سألتك الآن أنت في عملية جراحية وخيّرك الطبيب بين أمرين، إمَّا أن تحتفظ بقلبك، وإمَّا أن تحتفظ ببصرك، وإمَّا أن تحتفظ بسمعك، ماذا سيكون الخيار الأول لديك؟ قلبك طبعًا! لأنَّك ستموت من غير قلبك، وسيكون لديك بعد ذلك بصرك أو سمعك، الخيار صعب جدًا إمَّا أنَّك لن تسمع، أو أنَّك لن ترى، قد يكون فقد السمع أهون من فقد البصر، تخيل الآن أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لم يُقدِّم القلب ولم يقدم البصر بل قدَّم في لحظة السؤال السمع، فقال الله -عز وجل-: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسئُولًا) (الإسراء:٣٦).

أي: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- سيسألك عن سمعك، ماذا كنت تسمع؟! لأنَّ القضية المهمة هنا أنَّك تستمع إلى هذه الموعظة وأنك تستمع إلى الأمور التي تدخل قلبك، فهذا السمع ثم البصر ثم ماذا ؟ ثم الفؤاد.

ولاحظوا هنا حينما يقول الله -عزَّ وجلَّ-: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأعراف:٢٠٤). الله -عزَّ وجلَّ- هنا لم يقُل وإذا قُرِئ القرآن فاسمعوا له، كان يكفينا أن نسمع القرآن كما نفعل دائمًا، لكن الله -عزَّ وجلَّ- قال: استمعوا له، والاستماع نوعٌ من التَّكلف، يعني أرخ أذنك، واسمع بقلبك، لا تسمع بأذنيك فقط وحاول أنَّك تعيش هذه الآيات حقيقةً، وتستشعر ما الذي يحصل فيها،

ثم لم يكتف الله -عزَّ وجلَّ- بأن قال واستمعوا، بل قال وأنصتوا، والإنصات أنَّك تقول: صه صه يعني: اسكت ودعنا نسمع، أي: كأنَّك توقف الدُّنيا كلها لحظة قراءة القرآن الكريم فقط وذلك لتعظيمك الآيات، أو حتى لتُمتع أذنك بشيء من القرآن، فالقضية هي معاني عظيمة لا يتحرك القلب إلا من خلالها، طيب لو فعلت هذا الشيء، لو أني استمعت للقرآن وأنصت له ماذا يحصل لي؟ قال الله -عزَّ وجلَّ-:(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأعراف:٢٠٤).

قال المفسرون **لعلَّ من استمع للقرآن وأنصت له رحمه الله -عزَّ وجلَّ- وتنزلت عليه الرحمة مصداقًا لهذه الآية، وهل هذا فقط لفضل القرآن؟ لا، لأنَّ القلب يحيا، ويهتز، ويخضر، حينما يسمع القرآن.**

تعالوا نتخيل أنَّنا نسمع القرآن من فم النَّبي -عليه الصَّلاة والسَّلام- وسيحدثنا عن هذا الموقف جبير بن مطعم -رضي الله عنه- أحد الصحابة، وكان مشركًا في ذلك الوقت من ضمن الأسرى الذين ربطهم الرسول -عليه الصلاة والسلام- بعد المعركة في سارية من سواري المسجد،

و كان النَّبي -صلى الله عليه وسلم- عنده هذه الحكمة إذ يضع الأسرى المشركين في المسجد حتى يحضروا الصلاة، ويسمعوا القرآن، ويسمعوا الخطب، علَّ قلوبهم تهتز لهذا الدين، فيقول جبير بن مطعم كانت صلاة المغرب فبدأ النبي بقراءة سورة الطور، فسمعت منه القرآن فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا وقراءةً منه، فلما بلغ هذه الآية: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)(الطور:٣٥-٣٧). كاد قلبي أن يطير، وكان ذلك أول ما دخل الإسلام من قلبي، وبالطبع قد دخل في الإسلام مباشرةً، بعد أن تم فك أسره، ورجع إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-.

أمَّا أنا فقبل أيام كنت أسمع لتلاوة الشيخ محمد عمران مقطع من دقيقتين وهو يقرأ قول الله -عزَّ وجلَّ- : (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(١٦))(غافر:١٥-١٦). وقد أخذ الشيخ يردد هذه الآية فقط، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، فشعرتُ وكأنَّ يوم القيامة قد قام، وكأنَّك تسمع هذه الآية من الله -عز وجل- حينما يقول لمن الملك اليوم؟

فاعلم أنَّ هذه المشاعر قد جاءت من قراءة شخصٍ بعيدٍ عن زمن النبوة، فتخيَّل مشاعر جبير بن مطعم -رضي الله عنه- حينما سمعها من فم النَّبي -عليه الصلاة والسلام- وهو الذي سمعها من جبريل، وهو الذي أنزلت عليه الآيات من عند الله -عزَّ وجلَّ-!

إذن عندما يقول جبير بن مطعم-رضي الله عنه- : كاد قلبي أن يطير، فذلك لأنَّه سمعها من النبي -عليه الصلاة والسلام- تخيَّل أنَّك تسمع هذا القرآن من فم النَّبي -عليه الصلاة والسلام- فتسمع من قول الله - عزَّ وجلَّ- : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) (الطور:٣٥-٣٦).

ولذلك تخيَّل سماعك هذه الثلاثة أسئلة وأنت كافر مشرك لا تؤمن بالله! فيأتيك هذا السُّؤال البديهي الأول: أنت من أين أتيت؟ أنت خلقت نفسك، أم هناك خالق خلقك؟ هذه السموات التي فوقك والأرض التي تحتك من الذي خلقها؟ هل تملك أنت أن تخلقها؟ أم لديك مفاتيح خزائن السموات و الأرض؟

هكذا سمعها جبير بن مطعم -رضي الله عنه- فسمع السؤال من هو الرزاق ؟ من هو الخالق الخلاق؟ من هو المهيمن ومن هو المسيطر؟ هو الله -عزَّ وجلَّ-

عندما تسمع هذه الأسئلة فتجيب عنها في ذهنك، فتعلم أنَّ ليس لك من الهيمنة ولا من السَّيطرة شيء، إلا أنَّك عبدٌ مملوكٌ لله -عزَّ وجلَّ- سمعها جبير فقال: كاد قلبي أن يطير.

فبمثل هذه الآيات كانت تتطهر قلوبهم، فعندما نحاول أن نسأل اليوم ونحن في بدايات دروسنا عن الخلوة بذواتنا، وعن التزكية، وعن عمليات التطهير، التي نريد أن نقوم بها، يأتي في المقام الأول: **التزكية والتطهير من خلال آيات القرآن،**

نزل عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه - مع عبدالرحمن بن عوف في إحدى الليالي يعس في أروقة المدينة، فمر بدار رجلٍ من المسلمين فوافقه وهو يصلي، وكان عمر يحب أن يسمع القرآن من غيره فاستمع لقراءته، فإذا بالرجل يقرأ من سورة الطور قول الله -عزَّ وجلَّ- :(وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨))(الطور: ١-٨).

قال عمر: قسمٌ ورب الكعبة حق، قسمٌ ورب الكعبة حق، فالله أقسم بالطور، وبكتابٍ مسطور، وبيتٍ معمور، أقسم بكل هذه الأقسام حتى يقول الله -عزَّ وجلَّ- إنَّ عذاب ربك لواقع، ماله من دافع، ثم قال عمر: فلنمضِ لحاجتنا، أراد أن يمضي ويتحرك، فما استطاع ذلك، فاستند على حائط فلبث مليًّا، فالتفت إليه عبدالرحمن بن عوف فقال: نمضي، يعني: نمضي لحاجتنا، فقال: ما أنا بفاعلٍ الليلة وقد سمعت ما سمعت، فرجع إلى بيته، ومرض شهرًا كاملًا، يعوده النَّاس ولا يدرون ما به، لم يمرض يوم أو يومين ولا مرض أسبوع أو أسبوعين، بل مرض أربعة أسابيع، أربعة أسابيع وهو طريح الفراش، أمرضه قول الله - عزَّ وجلَّ-: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩)(الطور:٧-٩).

فالله -عز وجل- لم يستثنِ أحدًا، فهذا موعد كلنا سنقبل عليه، فعمر -رضي الله عنه- خاف ومرض شهرًا، والمؤرخون دقيقون جدًا في حساباتهم، ونحن نرى مثل هذا المرض في حياتنا فعندما تمر إحداهنَّ بمشكلة مع زوجها، وتكون مشكلة عميقة جدًا قد تؤدي للانفصال وتشتت الأبناء، فإنَّها لا تستطيع أن تبتسم، ولو فعلت فضحكت فإنَّ ضحكتها تكون باردة، وذلك من الهم الذي تحمله، ولا أحد يستطيع حملها على الابتسام، وكحال شخصٍ لديه مشكلة مع أولاده أو بناته، أو أي مشكلة يواجهها في العمل فيصل لمرحلة لا يجد فيها للحياة طعم، وقد يمرض لمدة شهر، أو سنة لا يجد طعمًا للأكل، وكل هذا دون مرض جسدي بل هو مرض الهم، وهذه هموم دنيوية، فكيف بحال عمر -رضي الله عنه- الذي أقعده همٌّ أخروي، وهمُّ الدُّنيا لا يقارن أبدًا بهم الآخرة، فعمر حينما أقعدته هذه الآية، ومرض لها شهرًا، حيا قلبه حين اهتز لهذه الآية.

مشكلتنا أنَّنا عندما نسمع هذه الآيات نمارس حيلًا مع أنفسنا، أي شخص عنده اطلاع في علم النفس سيعرفُ أنَّنا نمارس حيلًا في أنفسنا عندما نقرأ الآيات التي ذكرناها في سورة الطور مثلًا، فنتحايل على أنفسنا بثلاث حيلٍ معروفة عند علماء النَّفس:

<u>الحيلة الأولى</u>: أن نقول عند قراءتها أو سماعها: هذه للكفار وليست لنا، ونقرأ عن عذاب النار وعذاب البرزخ ويوم القيامة و أي شي فيه نوع من التخويف، فنقول: لا، لا، لا أظن أنَّ هذا الخطاب لنا، فنحن نسير على طريق مستقيمٍ والحمدلله، نعم، قد تفوتنا الصلاة أحيانًا، لكن هناك من لا يصلي أبدًا! قد لا أكون محجبةً لكنَّ لبسي محتشم! وهكذا يحاول الإنسان أن يقدم أي عذر لنفسه، ويُسقط الموضوع على أي شخص آخر غيره، وهذا الإسقاط من العوامل التي لا تجعلنا نسعى في تطهير قلوبنا، فعندما نظن أننا لسنا المخاطبين بالقرآن، ولسنا المخاطبين بهذه الآيات ولسنا المقصودين بها، فندعي أنَّ المقصود بها هم المذنبون جدًا، أمَّا نحن فخارج هذه الدائرة، وهكذا كلما سمع المرء كلامًا يهز القلب أسقطه على غيره، والشيطان يساعدنا في هذه العملية، فيقنعنا أنَّ المقصود هم الكفار فقط لا نحن

<u>أمَّا الحيلة الثانية</u> التي نمارسها ولا ننتفع معها بالقرآن، فهي تشويه الشيء الجميل، وتشويه الهدف الجيد، فمثلاً نجدُ شخصًا يسمع الآن دروس عن إزالة المنكر وعن ترك المنكر والتوبة، فيقول: أنا لا أستطيع أن أتوب، فكيف أتوقف عن مشاهدة المسلسلات؟ وكيف سأقضي باقي حياتي؟ وهكذا يقوم بتشويه الهدف الجميل الذي يسعى إليه، ويقول: إنَّ الحياة ستصبح نكدًا ومللًا، كل هذا وهو لم يجرب بعد، والأمر على العكس من ذلك فيمكن أن نقوم بكل الأمور التي تسعدنا ونحبها لكن دون أن نشعر بالسعادة، لكن جرِّب أن تسعد نفسك بالاقتراب من الله -عزَّ وجلَّ- وبأن تربط حبالك مع الله -عزَّ وجلَّ-، فالحيلة الثانية تشويه الهدف الجميل من التوبة إمَّا أن تشوهه بنفسك أو يشوهه لك غيرك.

<u>أمَّا الحيلة الثالثة</u> فعلى عكس الحيلة الثانية وهي تزيين المنكر والشيء الشنيع، فيقول: هذا شيء جميل، وهو الأجمل، وذلك نحو أن يقول أحدهم: سأجعل ابني يدرس في مدرسة مختلطة، كي يتعود التعامل مع البنات، ولا يكون مفجوع عند رؤيتهن! فهو الآن يحبب المنكر، والحرام لنفسه، والله تعالى قال: (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ..)(الإسراء:٣٢). ولم يقُل لا تفعلوا! قال: لا تقربوا الزنا، يعني: لا تضعوا الزَّيت بجانب النار، ونهى الله -عزَّ

وجلَّ- المرأة أن تضرب برجلها، كي لا يسمع صوت الخلخال، حتى لا تكون هناك فتنة، ثم يأتي أحدٌ فيقول: لا والله البسوا الخلخال، كي لا يصبح رجالنا مفجوعين؟ هل أمريكا الآن أو دول الغرب قد أصبح رجالهم غير مفجوعين؟ وهل نسب التحرش والاغتصاب عندهم قلَّت؟ مجرد بحث بسيط في قوقل، والإحصائيات تغني عن هذا كله .

مشكلتنا أنَّنا عندما نسمع قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ..)(التحريم:٧). نقول: لا نحن لسنا من الكفار، طيب ممتاز! قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)(النساء:١٤٥). فيقول: لا لا يمكن أن نكون مع المنافقين! طيب. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا). فيقول أيننا وأين الإيمان؟ هل نحن وجه إيمان؟ فماذا نحن؟ لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء! في أي منطقة باهتة نحن؟

ولذلك لا ينتفع الإنسان بالقرآن إذا لم يشعر بأنَّ القرآن يخاطبه، قال الله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)(يونس:٥٧). هذا هو القرآن نزل -كما قلنا في بداية درسنا- شفاءً وموعظةً لقلوبنا، فإذا أردنا الآن لقلوبنا أن تتطهر وأن نبدأ في عمليات التطهير والتصفية والتنقية فيجب أن نداويها بالقرآن، كما قد قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(ق:٣٧).

عن عبدالله بن مسعود قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْرَأْ عَلَيَّ ، قُلْتُ : آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا } قَالَ: أَمْسِكْ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. [أخرجه البخاري، صحيح].

كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يسمع القرآن فتذرف عينه له، كان يتطهر قلبه به، وهذا معاذ بن جبل-رضي الله عنه- وغيره من الصحابة كانوا يقولون لبعضهم البعض اجلس بنا نؤمن ساعة، اجلس بنا نؤمن ساعة، لم يكونوا يأخذون شيئًا من كلام الناس، أو كلام الدنيا، ولا يملأون الساعة مثلنا بكلام البشر، لا! كانوا يتلون شيئًا من القرآن الكريم فتطير له قلوبهم وتتطهر وتحلق في سماء الإيمان، كان يكفي القرآن أن يحرك شيئًا من قلوبهم، لأنَّهم لم يكونوا يسمعونه ألفاظًا كانوا يسمعونه حقيقةً، فيحركون به قلوبهم من الداخل، وهذه القلوب الحية تتحرك له فهي ليست قلوبًا قاسية ولا غافلة.

يقول الله -عزَّ جلَّ- عن المؤمنين حقًّا، قال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)(المائدة:٨٣). وهم من يمتدحهم الله -عز وجل- بأنَّ قلوبهم تهتز وأنَّ عيونهم تذرف مما عرفوا من الحق عند سماعهم القرآن الكريم، يعلمون أنَّ هذا الطرف من الدموع والتأثر بالقرآن سيكون منهم، ولذلك فعمر -رضي الله عنه- لم يكُن موسوسًا ولا مبالغًا حينما مرض شهرًا، بل إنَّ الله – عزَّ وجلَّ- قد امتدحهم على ذلك، فقال: (... إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا)(الإسراء:١٠٧). ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله رجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه..

عَنْ أَبِي الضُّحَى ، أَنَّ عَائِشَةَ ، مَرَّتْ بِهَذِهِ الْآيَةِ : { فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ } ، فَقَالَتْ : رَبِّ مُنَّ عَلَيَّ وَقِنِي عَذَابَ السَّمُومِ "[أخرجه عبدالرزاق في مصنفه]، فلما كانت في صلاة الضحى وهي تقرأ هذه الآية، جلست تدعوا، وتقول: ربِّ مُنَّ عليَّ، وقني عذاب السموم، يعني تحركت بهذه الآية واهتز قلبها، فلم تمُر عليها وهمها فقط أن تنتهي من وردها أو من الآيات، كانوا يقرأون القرآن لحياة قلوبهم، وقد قال عبد الله -رضي الله عنه-: ذهبت إلى السوق ورجعت، فإذا هي واقفة عند هذه الآية لم تتجاوزها، تدعي الله -عز وجل- أن يارب مُنَّ عليَّ في ذلك اليوم وقني عذاب السموم، وعذاب السموم هو عذاب النار.

وهذا تميم الداري-رضي الله عنه- رُوِي عنه أنه كان يقرأ القرآن ليلة كاملة، وقد شهد قراءته أحد الرِّجال في المسجد وذلك بعد صلاة العشاء، فقرأ صدر قول الله تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)(الجاثية: ٢١). فوقف عندها لم يستطع أن يتجاوزها، يقول راوي القصة: فخرجت من المسجد هذا بعد صلاة العشاء ثم رجعت لصلاة الفجر، فكنت أول من دخل المسجد فإذا هو واقفٌ على حاله،

تميم الداري-رضي الله عنه- واقف لم يتجاوز هذه الآية، فلنفرض أنَّه صيفٌ وأنَّ الليل قصيرٌ، وأنَّهم قد صلوا العشاء متأخرين، دعونا نفترض أنَّ الساعة كانت العاشرة، وأذان الفجر كان الساعة الثانية والنصف، فنحن نتحدث عمَّا لا يقل عن ثلاثِ ساعاتٍ ونصف! والرجل واقف فيها لم يستطع أن يتجاوز هذه الآية، قال تعالى:" (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثية: ٢١).

فعندما نرى صحابي توقفه مثل هذه الآية ولا يستطيع أن يتجاوزها ثلاث ساعات، فأنا وأنت كيف نستطيع أن نقرأها بقلب بارد! وما هي الذنوب التي اجترحها هؤلاء أصلًا؟ وما الذي جرح إيمانهم؟ وبماذا جرحنا نحن إيماننا بلقطات وكلمات وهمزات؟ نحن جرحنا بهذه الأفعال هذا الإيمان في حين أنهم لم يكونوا يفعلوا من ذلك شيء إلا نزرٌ قليل.

مقاتل-رضي الله عنه- يقول: صليتُ وراءَ عمر بن عبد العزيز-رضي الله عنه- فتوقف عند قول الله -عز وجل- قال تعالى:(وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ)(الصافات:٢٤). **هذه الآية مفزعة! الله -عز وجل- يقول: وقفوهم! الآية هذه لا يُستثنى منها أحد، كلنا سنقف هذا اليوم،** إنَّهم مسؤولون، أي: كلنا سنسأل عن جميع حياتنا، عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- الخليفة الزاهد خامس الخلفاء الراشدين حينما وصل إلى هذه الآية لم يستطع أن يجاوزها من البكاء، ووقف عندها طويلًا؛ لأنَّه يعلم أنَّه سيُسأل .

هؤلاء الناس الذين عملوا كلَّ هذا الخبر، ومع ذلك يخافون من هذه الآيات التي اهتزت لها قلوبهم، فمن باب أولى أنَّنا نحن من نحتاج إلى هذا التحريك لقلوبنا، وهذا التحريك لا يكون إلا من خلال القرآن، لن تفعل موعظة من كلام البشر أفاعيلها إذا لم تكن هذه القلوب مفتوحة أصلًا للوحي من السماء.

وكيف كان الصحابة يتفاعلون مع هذه المواعظ القرآنية؟ هل كانت القضية أنهم يبكون؟ قد نكون اليوم سمعنا درسًا مؤثرًا وبكينا واحمرت أعيننا، فهل هذه القضية؟ لا،

القضية هي ماذا يولد هذا السماع من العمل؟ كم قرار توبة بعد هذه الموعظة؟ بعد هذا الدرس الذي نسمعه، كم قرار توبة وترك اتخذنا؟ وكم فعل من الخير التزمنا؟ مقدار النفع هو بمقدار العمل الذي تُرجم بعد هذا العلم الذي سُمع.

العرباض بن سارية-رضي الله عنه- يحكي لنا عن موقفًا حدث له ، وذلك حينما حضر مع النبي -عليه الصلاة والسلام- في موعظة إذ يقول: وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موعظةً رجفت لها القلوب، وذرفت منها العيون، يعني: بكوا وصدورهم لها خنين، والخنين: صوت تردد النَّفس في الصدر من البكاء، وقد عرفوا أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعظهم موعظة مودع، تخيل أنَّك تحضر درسًا لأحد، وأتاك هذا الشعور أنَّ هذا هو الدرس الأخير، وهم في هذا الموقف لم يقولوا يا رسول الله إذا دخلت الجنة تذكرنا يا رسول الله؟ لا تنسانا؟ ولم ينهضوا ليحضنوا رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ويبكون ويقولون لا تنسانا، لا لم يفعلوا ذلك.

لاحظوا من فقه الصحابة الذين رباهم النبي -عليه الصلاة والسلام- على العَمل بالعِلم، فقد قالوا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، يعني: واضح أنَّك تودعنا فأوصنا يا رسول الله ماذا نعمل؟ أعطنا خطوات عملية لا تحرك قلوبنا ثم نتوه ولا نعرف ماذا نفعل بعدك، عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ: **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تأمّر عليكم عَبْدٌ حَبَشِيّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**. [أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح].

فالموعظة التي أرسلهم بها النبي -عليه الصلاة والسلام- التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده.

عثمان بن عفان-رضي الله عنه- يتعلم هذا الدرس جيدًا من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فحينما دفن أحد إخوته في قبره وقف عند مشارف القبر فبكى مثل موقف النبي -عليه الصلاة والسلام- تمامًا: عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَبَكَى، حَتَّى بَلَّ الثَّرَى، ثُمَّ قَالَ: «يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا» [أخرجه ابن ماجه، وقال الألباني: حسن].

فهو لا يبكي لأن القضية موت وفراق واشتياق للميت، ولا لأنَّ المقبرة وشكل القبر مخيف! قال النبي ﷺ: «يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا» [أخرجه ابن ماجه، وقال الألباني: حسن]. أي: هذه أول منازل الآخرة فأعدوا لها، فيقف عثمان بن عفان-رضي الله عنه- مثل هذا الموقف بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعشرات السنين فيبكي في نفس هذا الموقف، فلما سئل عن بكاءه قال: إن نجا هذا من هذا الموضع فما بعده أيسر منه، وإن هلك لم يكن من بعده فيه نجاة، يعني الآن هو يُسأل والآن هي أول منازل الآخرة إذا نجا في هذه

اللحظة التي أوسد فيها قبره فما بعده أيسر منه، فما بعده إلا بشارات، وأمَّا إذا هلك في هذه اللحظة، وبدأ العذاب، فأعانه الله فيما سيستقبل.

المفهوم العملي لهذه المواعظ هو أنهم كانوا يحركون بها قلوبهم لتترجم هذه الحركة إلى أعمال صالحة، وكان على هذا الأساس تبدأ وتنتهي علاقاتهم، فعندما نتكلم عن الأخوة في الله هي ليست قضية زمالة ولا صداقة ولا مجرد أنَّ الدنيا جمعتنا مع بعضنا البعض! كانت علاقاتهم الأخوية تبتدئ وتنتهي فيما يقربهم من الله -عزَّ وجلَّ.

كان محمد ابن المنكدر وأبو حازم-رضي الله عنهما-اثنين ممن تآخيا في الله، وتآخيا في الله يعني: تحابَّا في الله -عزَّ وجلَّ- أي: في ذات الله -عزَّ وجلَّ-، يومٌ من الأيام محمد بن المنكدر-رضي الله عنه- قرأ آية من القرآن فجلس يبكي حتى استعجم لسانه، فجاء أهله يسألونه ماذا بك؟ لم يقدر أن يتكلم ممَّا به، واستمر على هذه الحالة حتى ذهبوا إلى صديقه، وهو أخوه في الله: أبو حازم-رضي الله عنه- وقالوا له تعال وحاول أن تهدئه، فله فترة وهو يبكي طوال اليوم، ولم نستطع إسكاته، فجاءه أبو حازم فلما رآه سكت، دخل عليه داخل البيت غيَّر الموضوع فبدأوا يتحدثون عن أي شيء آخر، فلما هدأ سأله أبو حازم ما بك تبكي؟ فقال محمد: وقفتُ في وردي على قول الله -عز وجل- : (... وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)(الزمر:٤٧). فهيج أبو حازم على البكاء فبكى، فرجع محمد إلى البكاء.

القضية ليست أنَّهم يبكون، القضية أنَّ قلوبهم كانت حية عند آية، مثل هذه الآيات قد يكون الإنسان يقرر فيها قرار توبة، لأنَّك تعلم أنَّك ستأتي عند الله -عزَّ وجلَّ- ويبدي لك صفحات مطوية كنت تظن أن لا أحد يعلم عنها، وأنها غارت في السنين، أنت لم تتب منها ولم تعمل حسنات حتى تذهب تلك السيئة، فهي قد فلتت منك وتغافلت عنها، وانتهت، والله تعالى يقول: (... وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)(الزمر:٤٧).

لم يظنوا أنَّ هذا الحساب دقيق لهذه الصورة، ولذلك في سورة الكهف نقرأ عن تحسر الكفار حينما يقرأون هذا الكتاب فيقولون : (... وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ...)(الكهف: ٤٩). هل أنتم متخيلون المشهد الذي يتكلمون فيه؟ حينما يقلبون صفحات حياتهم؟ دعونا من أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قد قال: "الذين كفروا"، هذا الموقف ستتعرض له جميعًا، ستُعرض على كلٍّ منَّا قصة حياته يقلبها صفحة صفحة، وسيسألنا الله -عزَّ وجلَّ- أظلمكم كَتبتي؟ أظلمتكم الملائكة الذين كتبوا كتابكم؟ هل يوجد فيها شيء لم تعملوه؟ فنقول: لا يا رب، فيقولون هم: (... وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ...)(الكهف: ٤٩). عندما نقرأ هذه الآية قد لا نتصور الأمور الصغيرة، ولا أي خائنة أعين التفتنا إليها قد تكون منظر في الجوال، أو شيء سمعناه، أو أي أمر صغير فضلًا عن الأمور الكبيرة، ولذلك كانت أخوتهم في الله تشجع على تطهير القلوب وتنقيتها.

محمد بن كعب نظر إلى عمر بن عبدالعزيز، وكانت بينهم أخوة في الله، وكان يعرف عمر بن عبدالعزيز قبل أن يصبح هو الخليفة الزاهد، وقبل أن يتوب وتتغير حاله، وعمر بن عبدالعزيز في شبابه لم يكن إلا شاب مترف عليه سيمة أبناء الأمراء، كانت الجارية ترجل شعره ، أي: تمشطه، وكان فيه من الترف والنعيم الشيء الكثير،

فلما جاءه محمد بن كعب بعد أن تولى الخلافة وبعد أن تغيرت حياة عمر بن عبدالعزيز، فإذا هو نحيل شاحب الوجه، ليس هو صاحبه نفسه، ويتكلم معه وعين محمد بن كعب متفاجئة مما ترى في عمر بن عبدالعزيز، وينظر إليه نظرة متعجب من الأعلى إلى الأسفل، أأنت صاحبي؟ ماذا حدث لك؟! ففهم عمر بن عبدالعزيز ما يقصد، فقال له: "**يا محمد بن كعب لو رأيتني بعد ثلاث من دفني وقد سالت مني العينان، وانخسفت الوجنتان، وأتى على الوجه الديدان، لكنت من حالي عن حالي أعجب**".

كانت هذه الموعظة كفيلة بأن تحرك محمد بن كعب وأن تحرك عمر بن عبدالعزيز فلم يكونوا يعيشون القرآن كأنه شيء منفصل عن حياتهم، بل كانوا يعيشونه عيشة حقيقية، ولذلك كانوا يربون عليه أبناؤهم، فالواحد منهم ما إن يسمع كلمة من الرسول -عليه الصلاة والسلام- أو آية من القرآن إلا ويقف عندها، لا يحتاج إلى أن تتكرر ولا يحتاج إلى أن يعيدها عليه الرسول -عليه الصلاة والسلام- أو يعطيه مبررات ويقول له أكثر.

قال أبو مسعود البدري: كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي، «اعلم، أبا مسعود»، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو يقول: «اعلم، أبا مسعود، اعلم، أبا مسعود»، قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «اعلم، أبا مسعود، أنَّ الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»، قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا. [أخرجه مسلم، صحيح].

مباشرة، قال: أنت حر لوجه الله، وعندما نقول في ذلك الوقت أن يجعل عبد عنده حر لوجه الله، فكأننا الآن نقول أنه تبرع بسيارته الوحيدة التي يملك، العبيد في ذلك الوقت كانوا مثل الثروة الموجودة عندهم فكأنك تقول أنك بعت سيارتك، هو مباشرة قال: أنت حر لوجه الله، ومباشرة قال له الرسول -عليه الصلاة والسلام-: لو لم تفعل للفحتك النار، ولمن يُقال هذا الكلام؟ لصحابي، لأبي مسعود الأنصاري، وله قصص كثيرة مع النبي -عليه الصلاة والسلام- وفي ضيافته، أبو مسعود الصحابي يقول له النبي -عليه الصلاة والسلام-: لو لم تطلق العبد لوجه الله للفحتك النار، هذه للصحابة، فكيف هو حالنا نحن في مواقف كثيرة قد نتعرض لها، وفي أمور قد يفلت فينا الغضب على عاملة أو سائق ولا يستحق الموضوع كل ذلك الغضب، كل شيء نفعله لا يغادر هذا الكتاب الصغيرة والكبيرة مما نفعل.

عن عائذ بن عمرو، أنَّ أبا سفيان، أتى على سلمان، وصهيب، وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي. [أخرجه مسلم، صحيح] .

فهل تتصورون هذا وأبو بكر هو الذي دافع عن النبي -عليه الصلاة والسلام-؟

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ» فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثَلاَثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لاَ، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا. [أخرجه البخاري، صحيح] .

ومع ذلك وفي مثل هذا الموقف لم يدافع عن أبي بكر-رضي الله عنه- بل قال له أنَّ صهيب وبلال معهما حق، وكان لهم من الأذى الذي أوذوه على أيدي كفار قريش في ذلك الوقت، أبو بكر لم يقُل يا رسول الله هم بالغوا في الموضوع هو ضيف وأنا أمنته لعله يسلم، وبالفعل هو أسلم، لم يقل هذا إطلاقًا، بل ذهب مباشرة إلى صهيب وبلال الذين أعتقهما، كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا يَعْنِي بِلاَلًا»[أخرجه البخاري، صحيح].

لم يقُل يا بلال أنا الذي أعتقتك، أنا الذي أنقذتك من ذلك العذاب ولي يدٌ عليك، لم يفعل هذا إطلاقًا بل ذهب لهم وقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ لاحظوا هذه المشاعر كيف كانت كلمة فقط يسمعونها من النبي -عليه الصلاة والسلام- أنَّه من الممكن أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يغضب، كيف تتحول وتترجم هذه الكلمة إلى واقع عملي بالتطبيق، لم يجلس ويقول سمعت الرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول كذا لكن لم أقتنع، بل مباشرة ذهب إليهم، فنحن نتعجب من هذا التفاعل المباشر بينهم وبين آيات القرآن وبين الوحي السماوي.

أُبي ابن كعب حينما سمع قول الله -عز وجل-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)(النساء:٤٧). فقطع كعب الكلام وقال: يا رب أسلمت، يا رب أسلمت، يقول: وأنا أتحسس وجهي أخاف أن أطمس، لاحظوا وهو من أهل الكتاب، ومع ذلك جاءت الآيات كأنَّه يسمعها من الله -عزَّ وجلَّ- مباشرة، ومباشرة يحاول أن يسابق نفسه، فيقول: يا رب أسلمت، يا رب أسلمت، يقول: وأنا أتحسس وجهي أخاف أن أطمس، لأنَّه بالتفكير قد لا نجد شيئًا يمنع الله -عزَّ وجلَّ- أن يطمس وجهك الآن؟!

لذلك فالقلوب عندما تتحرك ليست فقط من أجل أن تحول هذه الموعظة إلى عمل، أو تحول شخص من أهل الكتاب إلى أهل الإسلام فهذا الرَّجل قد تحول إلى أهل الإسلام، بل أيضًا هي تحمي المسلمين من الانحراف، أبو بكر حينما يستسمح من إخوانه، الموعظة مباشرة تحولت إلى عمل فكانت تحميهم من هذا الانحراف.

قال تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...)(الحديد:١٦).اقرأ هذه الآية وانظر إلى الكم الهائل من الناس الذين غيرت هذه الآية حياتهم، ففي أشهر الحوادث التي حصلت للفضيل بن عياض، وكان قاطع طريق، فما إن سمع هذه الآية وكان يتسلق بيتًا يريد امرأة، فإذا هو يسمع وهو يتسلق، وقد كان قاطع طريق، يعني؛ مجرم، وسارق، وزاني، كل هذه الأشياء التي يفعلها من الكبائر، وممكن لو رأينا الفضيل في ذلك الوقت نقول: ماذا نرجو من قاطع طريق! وقد مرَّ بقارئ يقرأ: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...)(الحديد:١٦). قال الفضيل بلى يا رب قد آن، بلى يا رب قد آن، وتتغير حياته ١٨٠ درجة ويصبح الفضيل بن عياض هو عابد الحرمين المعروف، والذي يتنافس هو وعبدالله بن مبارك في عبادتهما.

وذلك ابن حرب كان تاجر، وكانت له ثروة عظيمة، في يوم من الأيام كان يمشي في موكبه، قافلة عبيد تمشي من أمامه وخلفه فسمع قارئًا يقرأ: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...)(الحديد:١٦). فوقعت الآية في قلبه فقال: بلى يا رب قد آن، بلى يا رب قد آن، وترك ما كان فيه من حياة الدنيا وانقطع للعبادة.

فهم لم يكونوا يسمعون هذه الآيات كما نسمعها نحن، وكذلك أيضًا القصة التي ذكرناها سابقًا، رجل كبير في السن راكب في قاربه في نهر البصرة ومعه جارية، فأراد شاب أن يعبر معه النهر، فلما أراد أن يعبر النهر ولم يكُن هناك سوى القارب الذي فيه الشيخ، فاستأذن في ركوب القارب معه، قال: اركب، يقول: فلما توسطت بنا القارب، فإذا بالشيخ يقول للجارية: هاتي العود، وبدأت الجارية تضرب بالعود وتغني، والشيخ منطرب، والفتى يضرب أخماس بأسداس لا يعرف كيف يسبح، ولا يعرف كيف يخرج من هذا المكان، وهم في وسط البحر، فالتفت الشيخ إلى الفتى فقال: أتُحسن مِثل هذا؟ يعني: أسمِعنا صوتك! أتُحسن مِثل هذا؟ قال: أُحسن أفضل منه! قال: هات ما عندك، ووقفت الجارية، فابتدأ الفتى فقرأ: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)(التكوير: ١-٥).

وبدأ في سرد أهوال يوم القيامة (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)(التكوير: ١٠). إلى أن وصل إلى قول الله -عزَّ وجلَّ-: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ)(التكوير: ١٤). فلما وصل إلى هذه الآية بُهت الشيخ، وكأنَّه يسمع هذه الآيات لأول مرة في حياته! ولاحظوا عندما نتكلم عن شيخ كبير في السن كم عمره؟ ٦٠ سنة، ٧٠ سنة!

وهو يعيش في حياة اللهو والطرب! يعني شيخ شاب رأسه، وأخذ له جارية تضرب له عودًا، وفي وسط بحر! يعني المشوار القصير فقط دقائق وهو غير قادر على أن يترك الطرب حتى في هذه اللحظة! ومع ذلك عندما سمع آيات القرآن وكأنه يشاهدها أمامه في أيام يوم القيامة، قال: يا فتى؛ هل لي من توبة؟ يعني هل ممكن أتوب بعد كل هذه السنين من الباطل! فقرأ عليه الفتى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(الزمر: ٥٣). فتاب هذا الشيخ وصلُح حاله، تخيلوا كم مرة نأتي على قول الله -عزَّ وجلَّ-: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)(التكوير:١)؟ كم نحفظها؟ وكم نُحفّظها أبناءنا؟ لكن هل تُحرك في قلوبنا هذا الذي حرّكت في قلب هذا الشيخ الكبير أم لا؟!

بِشر كان في زمن لهوه عنده رفاق، وعنده شلّة سوء، وكانوا يجتمعون على شُرب وعلى جواري، وعلى عود وغناء، وكان صوتهم يعلو من البيت، والناس بالخارج يتأذون منهم! يعني تخيل لو أنَّ جيرانك يرفعون صوت الأغاني، حتى يصل الصوت حدك! فجاء رجل إلى بيته فضرب الباب، فخرجت جارية! من جلسة طرب وأُنس، قال: يا جارية، صاحب هذا البيت عبدٌ أم حُر؟ فاستغربت من هذا السؤال! قالت: حُر، قال: صدقتِ، لو كان عبد لأحسن العبودية! وذهب.

من الذي سمع هذا الكلام؟ بِشر، بِشر فهم ما الذي يقول وماذا يقصد، فذهب حافيًا وركض مُباشرة، وسأل الجارية

ماذا قال؟ يريد أن يتأكد أنه سمع هذا الكلام، قالت: سأل عن صاحب الدار حُر أم عبد؟ فقلت له: حُر، فذهب حافيًا يركض إلى هذا الرجل فلما وصل إليه قال: يا سيّدي؛ أنت الذي قُلت للجارية هذا الكلام؟ قال: نعم، ولو كُنت عبدًا لأحسنت العبودية، قال: بل عبد، بل عبد، وأصبح يُكررها حتى كانت توبته في هذه اللحظة،

هذه المُفارقة لأنه لو كان حُر نفسه وما فوقه إله سيعيش حياته كما يُريد! أما لو كان يُؤمن أنَّ هُناك رب يسمع، ويُبصر فلن يتجرَّأ كُل هذه الجُرأة فيعصي الله ملء السمع والبصر!! فأكيد أنه لا يكون عبدًا فلو كان عبدًا لأحسنَ العبودية لربّه، ولذلك سُمي بعدها: "بِشر الحافي" على اللحظة التي تاب فيها وهو حافي القدمين.

هؤلاء الناس لم يكونوا يتعاملون مع القرآن ولا مع المواعظ التي تُستقى منه بطريقةٍ باردة، ابن الجوزي -رحمه الله- يقول: رأيت من أهل الخير، يعني: أناس يُظن فيهم أنهم أهل خير، لمّا أُصيبوا بالبلاء فثقُل عليهم البلاء، يعني: المرض المؤلم الذي لا يستطاع تحمله، قالوا: ربّي يظلمني! لماذا أنا! فبدأوا يتسخّطون وما استطاعوا أن يقفوا لهذا البلاء،

فقال ابن الجوزي: فلم أزل مُنزعجًا لتحصيل عُدّة ألقى فيها ذلك اليوم، موقف حصل الآن موعظة رآها بعينه، رأى هذا الإنسان يتسخّط في لحظة مرضه، انتهى الموقف؟ ذهب يولول عند الناس، تصدقون فلان الذي نحسبه على خير وكنا نحسبه ودائمًا يقول: اصبروا يا جماعة على الابتلاء، هل تعلمون أنه أول ما ابتُلي، لم يصبر! وصار يصيّح ويصرخ ويقول: ربّي يظلمني، وأنا ماذا فعلت في حياتي؟ كي أُبتلى بهذا البلاء! ابن الجوزي لم يقُل هذا بل قال: فلم أزل مُنزعجًا بتحصيل عُدّة! -قام يحوّش عمل- بتحصيل عُدّة ألقى فيها ذلك اليوم، يستعد إذا الله -عزَّ وجلَّ- ابتلاه بابتلاء أنه لا يخسر في هذا الابتلاء بل يصبر وينجح ويرضى عن الله -عزَّ وجلَّ- في أي ابتلاء يُصيبه.

نلاحظ هنا كيف كانت قلوبهم تتعامل مع المواقف التي كان فيها عِظات من الله -عزَّ وجلَّ-.

ولذلك كل من أطال الغيبة عن ربه، هل أمِنت العقوبة؟ يعني ما الذي يجعلنا نحن نأمن العقوبة من الله -عزَّ وجلَّ-؟ ما الذي يجعلنا نقرأ القرآن فلا نظُن أنه يُخاطبنا؟ لماذا نقرأ سورة التكاثر بكُل مشهد؟ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)(التكاثر:١). اسبح في خيالك بهاتين الكلمتين(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)، وتخيل الاستقبالات، والحفلات، وكل الأشياء، والتكاليف، وتخيل الناس التي على حسابات التواصل، وكل أنواع زهرة الدنيا التي تمر في عينك، عندما تقرأ: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)،

ثم تأتي الآية مُباشرة وراءها تختصر القصة: (حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)(التكاثر:٢). وكيف أن الحياة كُلها مجموعة بين هاتين الآيتين فقط، ألهاكم التكاثر وانشغلتم بالزينة في هذه الدنيا حتى زرتم المقابر، كنتم مشغولون مشغولون مشغولون إلى لحظة تفاجأتم أنكم الآن مُوسَّدين في قبوركم، حتى زرتم المقابر: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦)(التكاثر:٣-٦).

قرأها الفُضيل بن عياض في صلاته وكان ابنه علي خلفه، فيقول راوي القصة: وكان علي بجانبي فما إن قال أبوه -الذي هو الفُضيل بن عياض-:(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)(التكاثر:٦). حتّى خرّ مغشيًا عليه!

ابن تيمية كان يقول: هذا لضعف في تلقّي الآيات، وإلا الصحابة -رضوان الله عليهم- والرسول -صلى الله عليه وسلّم- لم تحصل لهم مثل تلك الأحوال! لكن نلاحظ كيف كان هؤلاء لا يستطيعون تحمّل هذه الآية، الفُضيل بن عياض يكررها كأنّه يقول: أنكم سترونها بعينكم؟! (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨))(التكاثر:٣-٨).

رأى أحدهم كما يقول ابن القيم: صبيٌّ طردته أمه من الباب، أخطأ هذا الصبي فإذا بأمه تطرده وتغلق دونه الباب، فأراد الصبي أن يتحرك ويذهب، فدار ودار ولم يجد مكانًا يذهب إليه، فنزل عند باب أمه وجلس عنده واقفًا حتى نام، طفل صغير لا يعرف من الدنيا إلا باب أمه، فذهب عند هذا الباب فنام عنده ففتحت الباب فوجدته نائم عند عتبة الباب، فقالت له: ألم أقل لك أنه لا يوجد أحن لك مني؟ لا حُضن أحنّ لك من غيري! أين تذهب وأنا أمك!

يقول: عندما تنظر إلى هذا المشهد تعرف **أن أي أحد من الدنيا إذا خفته هربت منه! إلا الله -عزَّ وجلَّ-** إذا خفته هربت إليه، إذا خفنا من الله -عزَّ وجلَّ- خفنا من النار، فأين نذهب؟ نختبئ تحت الأدراج! أم نتظاهر بأننا لا نرى؟ لا! إذا خفنا من الله -عزَّ وجلَّ- هربنا إليه،

لذلك نحن نقول: "أعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك" "وأعوذ برضاك من سخطك وبمُعافاتك من عقوبتك وبك منك"، هل لاحظتم كيف نتبتل إلى الله -عزَّ وجلَّ- في دُعائنا؟ أن يا رب نحن هاربين إليك خائفين منك "لا ملجأ ولا ملجأ منك إلا إليك" فأين نذهب يا رب وأنت ربُنا وعبيدك سوانا كثير وليس لنا ربٌّ سواك فأنت لديك الكثير من العبيد الصالحين الذين هم أحسن مني لكن أنا يا ربّ ما لي أي رب ولا لي إله أعبده إلا أنت! حينما نعرف مثل هذا الكلام نعرف أن نتوب وأن يُحرّك القرآن في قلوبنا، وهذا مختلف تمامًا عن أن تأتي وأنت بالسلاسل حينما تكون مريضًا كبيرًا وفي لحظة شدة عندها في تلك اللحظة تتوب.

ابن باز -رحمة الله عليه- جاءه سائل فقال: يا شيخ إني إذا خرجت من المسجد وجدت فردة من الحذاء والحذاء الثاني لا أجده إلا بعد خطوات، فهل يجوز لي أن ألبس فردة وأمشي بفردة واحدة كي آخذ الفردة الثانية؟ فقال له الشيخ: لا يجوز، هذا مكروه لأن هذه مشية الشيطان، يمشي بنعل واحدة، قال: لا خذ الثانية والبسهم الاثنتين، فقال: يا شيخ حتى لو كانت خطوة واحدة! فبكى الشيخ ابن باز وعض على شماغه وقال له: لا تعصِ الله ولو بخطوة!

بكية الشيخ ابن باز في هذه اللحظة هي تعظيم لله -عزَّ وجلَّ- فكيف أنت استحقرت خطوة! لو كنا حاضرين هذا المشهد ورجُل يسأل عن فردة سنقول ما هذا السؤال السخيف! فردة نعال! ولاحظوا الشيخ ابن باز -رحمة الله عليه- عندما سُئل هذا السؤال قال: لا تعصِ الله ولو بخطوة واحدة، ليس لك حاجة أن تأتي إلى الله -عز وجل- وقد عصيته في خطوة! ماذا سيضرك لو أحضرت النعلة بجانب أختها ولبستهما معًا! هذا في نعلة هذا في شيء مكروه، ومع ذلك عظّم الشيخ ابن باز أنك لا تفعل المكروه، قال: لا تعصِ الله ولو كانت في خطوة واحدة، كيف نتحرك مع القرآن وكيف نقرأه ولا تتطهر معه قلوبنا؟

في ختام هذا الدرس وبعد كل هذا الذي تناقشنا فيه، نريد أن نفعل شيئين اثنين، وسنختم بالواجب:

أولًا:

أن تُعظّم القرآن في قلبك، وأن تُعظّم ما عظّم القرآن فأنتَ في وردك عندما تدخل على شيء فيقول عنه القرآن أن فيه الفلاح وفيه النجاة وأن فيه الخير ويهدي إليه فعظّمْه في قلبك وأي شيء قليل يحقّره القرآن فحقّرْهُ في قلبك، فعندما نأتي على أمور يقول الله -عزَّ وجلَّ- فيها: (... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ...)(النساء:٧٧). فقلّل الدنيا في قلبك.

وغدًا أول ليلة من ليالي رجب، نريد أن نبدأ في استعداداتنا في الخلوة بذواتنا، ونريد أن نبدأ في تزكية أنفسنا، بالتقليل من الدنيا، فابدأ بإخراج أي شيء من الدنيا ليس له حاجة،

الآن ليس وقت الدنيا أبدًا، الله -عزَّ وجلَّ- كتب لنا عمرًا، وتجاوزنا السنة الماضية بكل كروبها، وعشنا حتى وصلنا إلى رمضان هذه السنة، فهذه نعمة من الله -عزَّ وجلَّ- أن بلّغنا إياه، إذًا هل يكون دخولك لرمضان بعد كل هذه النعم التي منَّ الله -عزَّ وجلَّ- علينا بها وأطال بأعمارنا إلى أن أتينا إلى الموسم الثالث والثلاثين من عمرك في رمضان، أو الموسم الرابع والأربعين، أو الموسم الخامس والخمسين من عمرك، منّ الله عليك فيه هل يكون دخولك مثل دخول العام الماضي مثل دخول العام الذي قبله! المفروض لا!

والله عزَّ وجلَّ يقول: (... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ...)(النساء:٧٧). وحينما يقول الله -عزَّ وجلَّ-: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)(طه:١٣١). **فما هو الخير؟** هو رزق ربك، هو القرآن الكريم، هو الدار الآخرة وما فيها، فعظّم ما عظّمه الله فلا تقرأ القرآن قراءة عادية، ولا تكون القضية قضية كمّ،

حاول أن ترى ما هو مُعظَّم في القرآن، ما هو الشيء اللي يعظمه كي تُعظّمه أنت، وما هو الشيء الذي يحقره، اقرأ قراءة تفحصية،

يقول شقيق البذخي عملت في القرآن عشرين سنة، يعني يقرأ ويقرأ القرآن، فوجدته مجموع في كلمتين: (وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)(القصص:٦٠). فكل شيء في الدنيا هو متاع الدنيا وزينتها، هذا وسخ دنيا، وأما الذي يبقى فهو ما عند الله -عزَّ وجلَّ- والدار الآخرة، والعلم به، فكل عمل صالح هذا هو الخير وهذا هو الأبقى، ولذلك هذا القرآن كما قال الله -عز وجل- عنه: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)(يونس:٥٨). ليس بالدنيا وإنما يفرحون بالقرآن.

ثانيًا:

إذا قرأت القرآن أو استمعت إليه، فاسمعه كأنَّك تسمعه من الرسول – عليه الصلاة والسلام-، تخيّل صوته وأداءه كيف سيكون وهو النبي -عليه الصلاة والسلام- مشاعره وهو يقرأ عن الجنة وعن النار وهو الذي رأى الجنة ورأى النار، وهو الذي أُسري به، الذي يحدثك بهذا الحديث ليس مثل الشخص الذي يتحدث به وهو لم يره،

ولذلك كثير من الصحابة أسلموا عندما سمعوا القرآن من فم النبي -عليه الصلاة والسلام-، هذا لو تخيلنا فقط أن نسمع من النبي -عليه الصلاة والسلام- فماذا لو أنك تسمعه وكأن الله -عز وجل- يتكلم به، كيف يكون لو كنا نقرأ القرآن ونحن نعلم يقينًا أن هذا القرآن هو كلام الله، هذا ليس كلام البشر، الشيء الذي نقرأه، من نعم الله -عز وجل- علينا كمسلمين أن كلام الله هو الذي وصل إلينا ونزل به جبريل على محمد -صلى الله عليه وسلم- ليبقى قرآنا مكتوبًا عندنا في السطور لنقرأه نحن بعد تلك السنين

فعندما تقرأه اعلَم أنك تقرأ كلام الله -عز وجل- واعلَم أن الله يخاطبك أنتَ شخصيًا لا تقُل أنا لا أفهم أصلًا، أنا لا أعرف العربية، أنا لا أفهم المعاني فهي صعبة علي، لا، من طلب الهدى والشفاء في القرآن يهديه الله، (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ...)(العنكبوت:٦٩).

عندما نتكلم عن قول الله -عز وجل- مثلًا: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١))(الواقعة:١٠-١١). هذه الآية، الله -عز وجل- يجعلك تنافس أنك تسابق على هذه المراتب، لا تسمع آيات القرآن وتوافق أن تكون في الصف الأخير دائمًا، لا ترضَ ذلك، وتخيل أن الله يرى الناس المتسابقين وأنتَ في الخلف، تخيل أن الله سألك والله يا فلان أنت في الخلف، والله يا ربي مالي خلق أجتهد أكثر؟ خلاص عطيت من نفسي واجد؟ تخيلوا لو كنا نخاطب الله -عزَّ وجلَّ- بهذه الطريقة!

نحن لا نقول هذا حقًا ولكن بالفعل، حياتنا الفعلية تقول هذا الكلام، كأن نقول: انظر كيف يصومون ويصلون ما شاء الله ! ولكن أنا لا أستطيع أن أفعل مثلهم، ولا عندك أي شيء من أبواب الخير، لا من التسبيحات ولا من التهليلات ولا من الصدقات ولا حتى بر بالوالدة، وهنا نتذكر حديث من المفلس، أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأنواع الإفلاس وبأنواع الصدقات التي ممكن أن يعملها الإنسان: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)(الواقعة:١٠). الله -عز وجل- يحفزك فيها لأن تكون من السابقين.

وأختم بواجبنا وأتمنى أن يكون مثل العهد نتواصى به، وليس من عادتي أن أختم الدروس بواجب ولكن أريد فقط إذا كنا أخوة في الله ولنا سنين مع بعض أن لا يكون دخولنا لرمضان هذه السنة دخولًا عاديًا،

ولذلك سنقوم بأشياء في رجب ثم أشياء أخرى في شعبان، ومن أوائل الأشياء التي نريد أن نستعد فيها هو حالنا مع القرآن، فأول شيء نريد أن نعمله هو أن نضاعف الوِرد، فأنتَ كم تقرأ؟ ضاعفه، إذا كنت تقرأ جزء اجعلهم جزأين، إذا كنتَ تقرأ ثلاثة أجزاء، اجعلها أربعة، إذا كنتَ تقرأ صفحة اجعلها صفحتين،

إذا كنتَ لا تقرأ فيجب أن تبدأ بالقراءة، ولا تستسلم، هذان الشهران غير عاديين، ونجاحنا في رمضان يعتمد على استعدادنا وصدق نيتنا وإقبالنا على الله -عزَّ وجلَّ- والوفود عليه، فنضاعف فيها هذا الورد سواء كان ورد قراءة أو ورد حفظ، إذا كنت من المشتركين في حلقة حفظ أو مراجعة أو غيره حاول أن تضاعف هذا الورد وحفظك وخذ وقتك فيه ودع هذا الشهر من الآن شهر تُكثِر فيه من المراجعة، لأنَّ شعبان هو شهر القراء، نريد أن نختم فيه ختمات، نريد أن يكون لنا أشياء ثانية نعملها لكن الآن في رجب نريد أن نستعد في مضاعفة وردنا اليومي من القرآن، هذا الشيء الأول فيما يتعلق بالكم.

الأمر الثاني فيما يتعلق بالكيف وهذا الواجب الثاني أنَّه يجب أن يكون عندنا جهد مبذول في التعرف على القرآن، إذا كنت من الناس التي تحب أن تقرأ فابدأ بقراءة تفسير أي شيء من القرآن، تفسير الشيخ ابن عثيمين مثلاً لجزء عمَّ جميل ومن أجمل التفاسير لجزء عمَّ، جميل تربوي نجد فيه أشياء تاريخية ومباحث لغوية وأنواع من التدبر، وهناك أيضًا تفسير القرآن تدبر وعمل، فيه هدايات للقرآن جميلة أيضاً، هذا لو كُنت تحب المقروء،

أما لو كُنت تحب المسموع فاسمع مشايخ ثقات أخذوا عن تفسير القرآن، وأحيانًا تفسير شيء من السور، تفسير سورة يوسف للشيخ احمد عبدالمنعم، أو تفسير سورة آل عمران، أو تفسير سورة البقرة، أو أيٍّ من السور التي تحبها وابدأ قراءة تفسيرها أو ابدأ مثلاً، وهذه من أجمل الأمور إذا كنت تحب الأشياء المرئية، الحلقات كحلقات الشيخ مساعد الطيار وعبدالرحمن الشهري، كان البرنامج المشهور يأتي في رمضان له ٣٠حلقة الشيخ مساعد الطيار، والشيخ الخضيري، والشيخ عبدالرحمن الشهري، كان الجميل في هذا البرنامج أنهم يأخذون هدايات القرآن في كل حلقة من ٢٠ دقيقة أو ٣٠ دقيقة يتناولون فيها هدايات الجزء كلها، فيعطونك الجزء الأول ما الذي يستفاد منه، ما هي خطوطه العريضة وأهم الفوائد فيه، ثم ينتقل إلى الجزء الثاني ويعطيك الهدايات الموجودة فيه، وخلال ٣٠ حلقة تكون قد استعرضت القرآن كله من أول سورة الفاتحة والبقرة إلى آخر جزء عمَّ،

عندما تعيش بهذه النفسية في رجب، تصل إلى شعبان وأنت تقرأ القرآن بشكل مختلف، وعلى ماذا؟ مجرد٢٠ دقيقة استمعت فيها فقط إلى هذه الحلقات، أو مثلًا قرأت الكتب الخاصة، مثلاً في هدايات القرآن، الطريق إلى القرآن للشيخ السكران، أو أول مرة أتدبر القرآن أو حفظ القرآن للشيخ اللاحم أو غيرها من الكتب التي تكلمت عن القرآن، وبإذن الله تجدون الروابط في قناة رواء سواء لهذه البرامج المرئية أو المسموعة أو حتى هذه الكتب لتسهيل الوصول إليها، لكن المهم فيها وغيرها هناك قنوات الآن تنشط في قضية الاستعداد لرمضان، سواء قناة المشوق إلى القرآن التي يستعرضون فيها هدايات الأجزاء أو يتدارسون أو معارج القرآن وغيرها من البرامج التي تنشط في مراجعة التفاسير وهدايات القرآن، هذه الأشياء مهم أن تغيِّر من حالك مع القرآن.

لا نقرأ درس اليوم يا إخوة على أنه درس كان مفيد وفيه معلومات جديدة، لا (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(ق:٣٧). حاول أن تخرج من هذا الدرس ببرنامج عمل،

ما الشيء الذي من الممكن أن تُضاعفه؟ وردك اليومي والجهد المبذول في تعلّم القرآن، تفسير سورة أو استعراض شيء من سور القرآن تدبر وعمل، هذا أقول لكم عنه من أجمل الأشياء، لا أعرف إن كان يُباع هنا

في الشرقية أو لا، كان يُطبع في مكة فعندما تفتح القرآن بالإضافة إلى التفسير الموجود فيه من تحت مكتوب عليه مجموعة أشياء تحت كل صفحة ما هي الأوامر أو ما هو الاستهداء الذي ممكن أن نأخذه، فجميل هذا حتى مدارسته مع إخوتك أو مع أبنائك ويكون لك هذا النوع من المشاركة.

وهذا الشيء أختم فيه، متى ما ضاعفت وردك متى ما قمت بجهد مبذول في تدبر وتعلم تفسير القرآن، شارك هذا الشيء الذي وصلت له مع أي أحد، مع جيرانك في العمارة، وإن كان جارا واحدا قُل له مثلًا صباح الجمعة ما رأيك أن نتدارس شيئًا ولو لنصف ساعة فقط؟ أي شيء بسيط كأن يتحدث أحدكم عن الحلقة التي سمعها ولخصها، فعندما يقرأ التلخيص ويذكره لأي شخص، فيه زكاة، وفيه بركة، وفيه نوع من المشاركة وأحيانًا تعليق واحد من الموجودين قصة تجربة لأحدهم ممكن أن تثري هذا النقاش، وتستفيد منها يمكن أكثر من الكلام الذي كنت قد جهزته، فلا تبخلوا بجهد في تعلم القرآن وفي تفسيره.

ارجع إلى مكتبتك وانظر ماذا عندك كتب لم تقرأها في تفسير القرآن أو ارجع إلى المسموعات من يوجد من المشايخ ممكن تستفيد منهم، ثقات فسروا القرآن الكريم وممكن أن تستمع إلى تفسيرهم، الشيخ ابن عثيمين كل تفسيره موجود مقروء ومسموع هذا حاضر وموجود ممكن تأخذ من حلقات الشيوخ الثقات.

ختامًا... أسألُ الله العظيم أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء همومنا، وذهاب أحزاننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا،وأن ينفعنا بما علمنا.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها

.